مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني، ص175– ص204 يونيو 2013
ISSN 1726-6807 http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/

الخطاب الروائي في مواجهة الواقع

روايتا " نهر يستحم في البحيرة" و"ماء السماء" ليحيى يخلف نموذجاً

د. مها حسن يوسف القصراوي

كلية التربية

جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا – الإمارات العربية المتحدة

ملخص: يسعى البحث للكشف عن دور الفن السردي في مواجهة الواقع المعيش، فالعجز الإنساني في ظل المتغيرات الجذرية ألجأت الإنسان في العصر الحديث إلى البحث عن وسائل تعيد توازنه النفسي.

يعلن الروائي في السرد عن موقف ما تجاه الواقع، لذلك لجأ يخلف إلى فن الرواية ليعبر عن رؤيته تجاه الواقع الفلسطيني الراهن في محاولة لاستجلاء هذا الواقع وتعريته وكشف حقيقة ما يدور فيه.

لقد استطاع يحيى يخلف في روايته "نهر يستحم في البحيرة" مواجهة الواقع المعيش بحكايات الماضي مرة والحلم مرة أخرى في محاولة لتأسيس حلم جديد، يعيد إليه حالة توازن ذاتية تواجه حالة الاغتراب التي يعيشها في واقع مأزوم وحاضر مرير، لم يحقق للفلسطيني العائد في ظل أوسلو طموحه بالعودة بعد سنوات التشرد والغياب. وأيقن الفلسطيني أن اسرائيل لم تسرق أرضا فقط وإنما سرقت الحلم الذي رواه الآباء والأجداد للأبناء. فجاءت رواية "ماء السماء" في محاولة يتجاوز فيها الراوي الواقع المرير ويستعيد توازنه من خلال سرد حكاية الإنسان الفلسطيني من بدايتها حين حدثت النكبة. ورغم مرارة الواقع وضبابية الحاضر وآلامه، فإن الشخصيات تعيش حالة أمل وتفاؤل في نهاية الرواية، تؤكد حقيقة ملكية الفلسطيني للأرض وحقه بالعودة إليها.

The role of narrative art in facing the reality of life

Abstract: This research attempts to reveal the role of the narrative art in confronting the actual circumstances. Human inability under the radical changes has forced man in the modern time to look for means of regaining his psychological equilibrium. In the narrative, the novelist declares a certain stand towards reality. That is why Yakhlef has resorted to the art of novel in order to express his view of the current Palestinian situation in an attempt to clarify this situation and expose the reality of what is going on in it. In his novel, *A River Bathing in the Lake*, YahyaYakhlef has been able to challenge the lived reality through the stories of the past at one time, and through the dream at another in an attempt to establish a new dream that gets him back the self-balance in order to confront the state of estrangement that he experiences in a critical reality and a bitter present that have not achieved for the Palestinian coming back under the umbrella of Oslo the aspiration of return after years of absence and expulsion. The Palestinian has come to the conclusion that Israel has stolen not only the land but also the dream passed over to the children by fathers and grandfathers. Hence, the novel, *The Water*

of the Sky, has come as an attempt in which the narrator tries to go beyond the bitter reality and regain his balance by narrating the story of the Palestinians from its very beginning when the catastrophe took place. And despite the bitterness of the reality and the ambiguity and pain of the present, the characters live in a state of hope and optimism at the end of the story, emphasizing the reality of the Palestinian's ownership of his land and his right to return to it.

المقدمة:

أضحى الفن السردي في العصر الحديث أحد المسارات الثقافية لمواجهة الواقع المعيش في ظل متغيرات جذرية طالت الثقافة والفكر والمجتمع والسياسة والاقتصاد ، لتصبح الكتابة إحدى الوسائل التي يمتلكها الإنسان لمواجهة التدمير الموجه ضد إنسانيته. وقد أدت هذه المتغيرات إلى تغيير جذري في الواقع الجمعي المتمثل في الأنساق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في المجتمع.

إن التسارع الزمني في العصر الحديث أوقع الإنسان في حالة ضبابية في فهم الواقع وفلسفته، لذلك غرق الكثير من الناس في ذواتهم، يبحثون عن لذة مادية في غياب القيم والأخلاق وانقلاب المفاهيم وضياع إنسانية الإنسان في مستنقع اللحظة الحاضرة . ولعل أكثر المفارقات مأساوية تتجلى في حالة العزلة والاغتراب التي يعيشها الإنسان المعاصر رغم تطوير وسائل الاتصال والتوسع الكبير في شبكة المعلومات، فانكفأ على أعماق ذاته يبحث عن الحقيقة في زمن عم فيه الفوضى والحروب والقلق النفسي واهتزت الثوابت التي كان يؤمن بها ، وتبدلت المفاهيم وانقلبت المعاني واغترب الإنسان في وطنه وخارج وطنه.وفي ظل الانقلاب الفكري والثقافي وهيمنة الفكر المادي، وعجز الإنسان عن حماية إنسانيته، وجد الكاتب المبدع أن سلاحه في مواجهة الواقع المعيش يمكن أن يتحقق بالسرد ، فاتخذه طريقة إلى بلورة حالة الرفض والتمرد في المجتمع العربي ، لذلك قال النقاد العرب "الرواية ديوان العرب في القرن العشرين ". "فالرواية قد تبيح في الحقيقة توثيق اتصالنا بالواقع ومعرفته بصورة عميقة ."(1)

ويتساءل د. حليم بركات عن الأسباب التي أغرقت الإنسان العربي المعاصر في حالة اغتراب سودواية يعيشها في أرضه ووطنه، " إلى أي حد تسهم الأنظمة والمؤسسات السائدة في إفقار الإنسان وتدجينه وقهره وتهميشه وإحالته إلى كائن أخر، وكيف تتعمّق هذه الفجوات الواسعة بين الحلم والواقع المصيري ؟ وما هي، بالتالي، السبل التي يمكن من خلالها تجاوز حالة الاغتراب الذاتي والاجتماعي بحيث يتمكن الإنسان من أن يحقق تطلعاته إلى نفسه والمجتمع والإنسانية في عصرالحداثة وما بعد الحداثة."(2)

الخطاب الروائي في مواجهة الواقع

لقد عاد الروائي الفلسطيني يحيى يخلف إلى غزة في فلسطين في ظل إتفاقيات أوسلو، وهو من شهد حركة الثورة الفلسطينية في المنافي. كان يؤمن بالكفاح المسلح لاسترجاع الماضي البعيد والمكان المفقود، فإذا به يعود إلى جزء من الوطن في ظل الإحتلال، حيث المدن والقرى المقطعة الأواصر والحواجز الأمنية التي منعت الفلسطيني من ممارسة حرية الحركة والفعل إلا بتصريح إسرائيلي.

يعلن الروائي في السرد عن موقف ما تجاه الواقع، لذلك لجأ يخلف إلى فن الرواية ليعبر عن رؤيته تجاه الواقع الفلسطيني الراهن في محاولة لاستجلاء هذا الواقع وتعريته وكشف حقيقة ما يدور فيه، مؤكدا في روايته الأخيرة "ماء السماء" أن حق العودة إلى الأرض المفقودة لايمكن لأي فلسطيني أن يتنازل عنه مهما بعدت المسافات وطال الغياب.

-1-

لم يكن الأدب في يوم ما يكتب من أجل الأدب وحده ، وإنما يظل الواقع ماثلا أمام الأديب، فهو ينتمي إليه ولا ينسلخ عنه، فيسعى إلى تشخيص الواقع وتجسيده بل ونقده ومواجهته بالكتابة التي تظل قوة حيوية في يد الأديب " ولعل الاتجاه نحو الواقع يعكس اقتناع الروائي بأن عالمه غني في مادته و في تشكيلها وهو غني يمتد إلى العجائبية والغرائبية."(3)

يحاول يحيي يخلف في روايته " نهر يستحم في البحيرة " مواجهة الواقع المعيش بحكايات الماضي مرة والحلم مرة أخرى في محاولة لتأسيس حلم جديد، يعيد إليه حالة توازن ذاتية تواجه حالة الاغتراب التي يعيشها في واقع مأزوم وحاضر مرير، لم يحقق للفلسطيني العائد طموحه بالعودة بعد سنوات التشرد والغياب. إن الإنسان في كل زمان ومكان يسكن الوطن والأرض إلا الفلسطيني فالوطن يسكن روحه ويحمله ويرحل به أينما حلّ. لقد كانت الغربة القسرية التي عاشها الراوي في رحيله عن وطنه عام 1948مريرة، ولكن رغم مرارة الرحيل والغربة كانت ذكريات الطفولة الجميلة تربطه بالوطن المفقود الذي ظل يحمله في داخله ، لذلك بعد عودته إلى غزة يعيش حاضرا مأزوما مهترئا أفرزه اتفاقيات مدريد وأوسلو وما قبلها.

لقد أضحت الكتابة السردية في العصر الحديث أحد الأسلحة القوية التي يمتلكها الإنسان لمواجهة التدمير الموجه ضد إنسانيته، وصارت الرواية هي الفن المقاوم للشر والعجز والاستسلام، إنها فن من أجل الحياة . فالرواية " تصاحب الإنسان على الدوام وبإخلاص منذ بداية الأزمنة الحديثة. لقد سيطر " هوى المعرفة " آنئذ على الإنسان كيما يدرس الحياة العيانية للإنسان ويحميه ضد " نسيان الكائن " كيما يضع " عالم الحياة " تحت إنارة مستمرة .... إن

الرواية التي لا تكتشف جزءا من الوجود ما يزال مجهولا هي رواية لا أخلاقية ، إن المعرفة هي أخلاقية الرواية الوحيدة."(4)

ويرى محمد برادة أن " الرغبة في التعبير من خلال شكل فني أو أدبي هي رغبة في الاستمرار في الحياة رغم الحدود والأسيجة الموضوعة أمام الإنسان، أي رغم سقف الموت، وحتمية الزوال ومحدودية الطاقة البشرية في استيعاب تجليات الواقع وتعقيدات العالم "(5).

ومن يمعن النظر يجد أن الكتابة غدت جزءا من مغامرة العيش والوجود، إذ يسعى الكاتب إلى إبداع اللغة والأفكار التي تعمل على ترميم الشرخ الذي تولد نتيجة المفارقات بين مواقف يعيشها ورؤى يؤمن بها ، لذلك يصبح العمل الإبداعي تعويضا عن عجز يعيشه المبدع نتيجة عدم القدرة على تغيير الواقع المعيش بشكل مباشر. فالرواية- كغيرها من الفنون- هي محاولة المبدع أن يوجد نظاما ما يفهمه، وهو يرى فوضى الحياة والتجارب.

1-1 عتبة النص: العنوان والاستهلال السردي:

تقول الرواية الإسرائيلية، إن هزة أرضية في خليج العقبة قد جعلت نهر الأردن يغير مجراه، فبدلا من اندفاعه من الشمال إلى الجنوب "أصبح يجري من الجنوب إلى الشمال، أي صار ينبع من البحر الميت ويصب في البحيرة وجبال لبنان"(6) ، ولذلك أصبحت مياه البحيرة مالحة ومياه النهر مالحة.

تحاول الرواية الإسرائيلية قلب الحقيقة الجغرافية الثابتة التي لن تتغير مهما حاولت إسرائيل قلب الحقائق، وسيظل نهر الأردن يغتسل في بحيرة طبريا في مجراه الثابت. "إن النهر ذكر، والبحيرة أنثى.. وعندما كانت البحيرة في موسم تكاثر الأسماك تصطبغ باللون الأحمر، كانوا يقولون إن البحيرة تحيض وإنها تمر في مرحلة الخصب، وكانوا ينسجون حكايات أسطورية عما يدور في أعماقها...."(7). فنهر الأردن سيظل حاضرا واستحضاره في العنوان دلالة على ديمومته في سريانه، فهو ما زال يستحم في بحيرة طبريا ، وفعل الاستحمام يجسد استمرارية حضور المكان رغم المفارقات الزمنية التي يعيشها الإنسان في ظل متغيرات غير قادر على استيعابها أحيانا. فالنهر رغم كل الأقاويل الإسرائيلية مازال يغتسل في البحيرة، فيخرج "مغسولا، نقيا، فحلا، يتدثر بزرقة داكنة تلقيها الأشجار الكثيفة التي نبتت على ضفتيه."(8) لقد حاول الإحتلال تغيير معالم الأمكنة، لكنه سيكون عاجزا أمام الجغرافيا الطبيعية.

يجسد العنوان حالة توحد وتمازج بين النهر والبحيرة ، إذ يمتزجان إلى درجة التماهي فيتولد الفجر الجديد، إنه فجر الراوي الباحث عن الحياة في حلم جديد، فيجسد تماهي الذكر والأنثى حالة خصب واستمرارية للوجود، هذا التماهي يعبر عن توحد الفلسطيني العائد مع واقعه

الجديد في محاولة لتجاوز الفجوة بين الحلم والواقع المعيش، إذ يقع على عاتق العائدين مسؤولية رسم صورة جديدة لحلم جديد يشبه الأمكنة الثابتة، لأن الأزمنة تتغير.

يستهل الراوي بطل الرواية حاضره السردي من أرض الوطن العائد إليه عبر مدريد وأوسلو، من النافذة يتشوف بحر غزة الرابض مكانه ، فقد انسحب الجنود والأسلحة وبقى البحر ثابتا في مكانه، لم يستطيعوا سحبه، وكانت فرحة العودة منقوصة، " فرح ناقص وابتسامة تشبه البكاء"(9)، وعودة المقاتلين الذين " كانوا ينتشرون في البراري العربية "(10) إلى وطن مازال يقبع في زنزانة الإحتلال.

في ظل البحر الثابت ونافذة تطل على المكان، يتجلى الحاضر مريرا، وفرحة العودة لم تكتمل، وابتسامة الفلسطيني العائد تشبه البكاء، لأنها عودة مشروطة بوجود المحتل الذي ما زال يسيطر على معابر الجسور، والفلسطيني يتعرض للتفتيش والتدقيق، " في آخر الجسر كان يقف جندي إسرائيلي."(11) في ظل التحولات والمتغيرات ، يظل البحر هو الثابت في زمن فقد جميع الثوابت والقيم التي ظل الفلسطيني يناضل من أجلها

لم يكن بحر غزة وحده الذي أطل من النافذة، وإنما يرى الراوي أحد الضباط الفلسطينيين العائدين، وأخذ يراقبه في دخوله وخروجه، " لقد خلع بدلته الكاكية المرقطة ، ولبس ثياب الشرطة واستمتع باستقبال حافل مع الجماهير عشية دخوله من معبر رفح ، وفرح بتلويح الأيادي وهتاف الحناجر." (12) لقد هجر الفدائي الماضي وعاش لحظته الحاضرة، إذ فرض عليه زمن الحاضر المهزوم أن يستبدل جلده وأن يعيش لحظة انتصار مزيفة، زيفها الحاضر المهترئ.

1-2 الشخصية الروائية والواقع:

يعد اختلاف الشخصيات في الرواية معادلا لاختلافها في الحياة، إذ يمنحها الاختلاف الصدق والجمال معا، "فالصدق المعرفي في نقل الواقع هو إحساس جمالي كذلك، والصدق الفني في مثل هذه الحالة هو صدق معرفي، هو المعرفة، وهذا هو الامتلاك المعرفي- الجمالي للحياة في حركتها، بهذا يصبح الجمال والمعرفة وجهي عملة واحدة."(13)

إن العلاقة بين الفن والمجتمع "لا تتمثل في تكديس الواقع، بل تتمثل في طريقة تنظيم هذا الواقع على نحو خلاق بحيث تبرز العلاقات المتناقضة أو المتعارضة في شتى جوانب الحياة، وذلك في سبيل الوصول إلى حل يسمو فوق الواقع. ومن هنا تأتي نموذجية البطل في العمل القصصي التي لا تحكمها العلاقات الزائفة أو الأحداث التي لا تنبع من مجرد الصدفة، بل من التمثل الحقيقي لجوهر الحياة . "(14) لذلك يكتب يحيى يخلف روايته "نهر يستحم في البحيرة" بعد عودته إلى غزة في ظل اتفاقيات أوسلو ومدريد، فزمن الحاضر دمر أسطورة الصمود

الفلسطيني، وفرضت هذه الإتفاقيات على الشرفاء والمناضلين عودة منقوصة تتسم بالاغتراب والنفي داخل الوطن .

يعود الراوي بطل الرواية إلى فلسطين، ويسرد لنا حاضره وماضيه، فقد عاد إلى غزة لكنه ما زال لاجئا من قرية سمخ التي احتلها اليهود في عام 1948 . إنه لا يحمل سوى ذكريات يجترها في عودته كي لا يشعر بالغربة ، لأن جميع أفراد عائلته ما زالوا يعيشون في المنافي، وسمخ والبحيرة والقدس أمكنة ما زالت مستعصية على العائدين إلا بتصاريح إسرائيلية ، لذلك يسكن الراوي في غزة مع عائلة فلسطينية باعتباره ضيفا ما زال غير قادر على ممارسة الفعل والحركة لأنه لا يملك هوية إسرائيلية. يعيش الراوي حالة اغتراب وتأزم نفسي في حاضره بعد عودته إلى الوطن عودة مهزومة في ظل الاحتلال " ها هو الوطن ، لحم ودم ، ولكنه مثخن بالجراح. "(15)

دخل الراوي غزة من خلال الجسر الخشبي في ظل بنادق الاحتلال، واكتشف منذ اللحظة الأولى أنه غريب في وطنه، وأن فرحة اللقاء بعودته إلى بقعة ما في الوطن لم تكتمل فهو مازال يحاول الاندماج في هذا النسيج الاجتماعي الجديد، وهو بحاجة إلى الوقت ليعتاد العلاقات والحياة الجديدة كي لا يشعر بالغربة. ورغم محاولات الراوي بتجاوز الإحساس بالغربة في بقعة ما من الوطن، من خلال التجول في شوارع غزة للتعرف على الأمكنة والناس، لكنه وقف يواجه ذاته " أنا العائد أقف ضائعاً في شارع من شوارع وطني، أشعر بالغربة والوحدة، أشعر بالرغبة في البكاء." (16)

عاد الراوي إلى غزة لايعرف أحداً، لأن عائلته مازالت تعيش في المنافي، فيشتاق إلى أهله ويكلم شقيقه راضي الذي يطلب منه أن يزور سمخ قريته الأصلية، وأن يحضر منها حفنة تراب، وأن يبحث عن المكان الذي دفن فيه خاله عبدالكريم الحمد، لذلك يقرر الراوي زيارة سمخ "كنت راغباً في البداية أن أزور سمخ ....كنت أرغب في أن أرى الحلم الذي عاش في سويداء قلبي... كنت على استعداد كي أدفع ما تبقى من عمري من أجل رؤية سطح البحيرة الذي يشبه بطن الغزالة. "(17)

إن النضال يقود إلى النصر إلا نضال الفلسطيني في المنافي قاد إلى هزيمة تمثلت في عودة مهزومة ، وكأن عبء الوطن الذي حمله الفلسطيني قد أثقل كاهله فأراد العودة ليتخلص من هذا العبء مهما كانت صورة العودة. عاد الفلسطيني يرمي العبء على أرض وطن مازال يقبع في ظل الاحتلال، فمنهم من استكان ورضي بهذا الواقع المرير وصار شرطيا بعد أن كان فدائيا ، ومنهم من صار العبء أكثر ثقلا، لأن الوطن مازال يسكن في داخله ، وجسده يسكن

أرض الوطن المحتل مثل الراوي بطل الرواية الذي يعيش زمنه السردي في أزمة نفسية ، فهو في الوطن ويجتر ذكريات الوطن والطفولة والمنفى. إنه في غزة ولكن ما زال قلبه معلقا في سمخ والبحيرة والماضي البعيد ، فهذه العودة المنقوصة زادت من مرارته.

قرر الراوي أن يزور قريته بعد حصوله على تصريح اسرائيلي مع مجد وأكرم العابد، إذ يلتقي الثلاثة في القدس ومن هناك تنطلق رحلتهم باتجاه البحيرة وطبريا وسمخ ليقوموا بهذه الزيارة، فقد جاء الثلاثة يبحثون على أمكنة الماضي البعيد، حيث الطفولة الأولى.

أيقن الراوي أنه اقترب من قريته حين شم رائحة البحيرة التي اختزنها منذ الطفولة، " سمخ ... وردة كالدهان ، سدوم أكلتها الأمواج ... بل أكلتها أسنان الجرافات . سمخ بلدة غير مرئية، وهذا الذي أراه على أنقاضها تلال من بيوت الإسمنت، تلال من الأسوار التي تحجب البحيرة، مدينة على النمط الأوروبي ..." (18)

لقد اختفت معالم القرية العربية القديمة وتغير اسمها إلى تسيمخ بعد أن تم ترويضها وتهويدها، ولم يبق من سمخ الماضي إلا تراب وحصى ناعم ورائحة البحيرة، "رائحة المياه تختلط برائحة الأعشاب التي تنمو على حوافها، رائحة قادمة من ستة وأربعين عاماً، مثلما يتذكر المرء رائحة الحليب وهي تقطر من ثدي أمه، أو مثلما يتذكر فجأة رائحة الصابون الذي كانوا يغسلون به شعر رأسه." (19)

عاد الراوي إلى قريته بعد غياب ستة وأربعين عاماً سائحاً وسط الريبة والخوف، ومابقى من الماضي البعيد سوى صور وذكريات حملها في ذاكرة الطفولة " حملت في أعماقك صورتها، ذاكرتها أصبحت ذاكرتك. حكاياها وأناسها وعطر ورودها وبساتينها. تستطيع الآن أن تعيد بناءها وهندستها، بيوت الطين وبيوت الحجارة السوداء ..." (20) لقد صارت سمخ مدينة يهودية على أنقاض بيوت الماضي وذكرياته، ولم تعد هناك بيادر الماضي ومقاهي الماضي وخيول الماضي، كل شئ غاب في ظل حاضر تم تهويده وترويضه.

لم يملك الراوي في حاضره سوى المرارة وابتلاع الصدمة، وقرر أن يرحل مع أكرم العابد ومجد باتجاه طبريا بعد أن أخبره أكرم أن جثة خاله عبدالكريم الحمد مازالت في ثلاجة الموتى في تل أبيب، وهو الهدف الثاني الذي جاء يبحث عنه في رحلته إلى الماضي البعيد والمكان المفقود، ولكن اسرائيل رفضت دخول الراوي للتعرف على الجثة وطلبت منه أن يحضر الوثائق المتعلقة بالجثة وأن يتم التسليم عن طريق الصليب الأحمر.

لقد عاد عبدالكريم الحمد خال الراوي إلى سمخ بعد احتلالها عودة الغزلان كي يموت على شاطئ البحيرة في المكان الذي كان فيه بيته، "إن الغزلان عندما تشعر بدنو أجلها تذهب إلى

المكان الذي تحبه وتموت ذلك الموت الجميل بعيداً عن أعين الناس لكي لايراها أحد وهي تحتضر." (21)

لم تكتمل موتة عبدالكريم الحمد بصورة طبيعية في ظل الاحتلال، إذ تم اغتياله وحبس جثته في ثلاجة الموتى، وظلت حكايته ترددها العائلة ويتذكرها الراوي حتى أصبحت جزءاً من ذاكرته التي قامت اسرائيل بالاستيلاء عليها ومصادرتها كما صادرت سمخ وهودتها.

لقد وجد الراوي فلسطين التي حلم بها ورسمها في مخيلته من حكايات الآباء والأجداد مغايرة تلك التي رآها في رحلته الحاضرة من القدس إلى المدن والقرى التي سقطت بعد نكبة 1948. " هل حقا أنا في سمخ ؟ هل هذا ما كنت انتظره وما توقعت أن ألقاه؟ لم أكن أشعر بالألفة مع المكان ، فقد تغير كل شيء ، اقتلعوا البيوت بالجرافات ، وبنوا مكانها عمارات لا علاقة لها بنسيج وطقس المكان. حاولت أن أعيد ترتيب الأماكن والأشياء في خيالي، عند هذا الشاطئ كانت تنمو حياة من نوع آخر ، فالبحيرة بالنسبة لأهالي بلدنا مثل الشمس أمّ الحياة." (22) لقد صارت سمخ مدينة يهودية فقدت معالمها القديمة، وعلى أنقاض بيوتها قامت مدينة يهودية.

إن المونولوج الذي يعيشه الراوي في زمن السرد الحاضر يعبر عن كارثة إنسانية تعرضت لها إنسانية الفلسطيني حين اقتلع من جذوره، وتشرد في المنافي، وحلم بوطن مفقود، وحين عاد وجد الوطن ليس هو الوطن الحلم ، وإنما هو غريب في واقع ليس واقعه، " أنا العائد أقف ضائعا في شارع من شوارع وطني ، أشعر بالغربة والوحدة ، أشعر برغبة في البكاء." (23)

لم يكن الراوي وحده من حمل فلسطين الحلم في المنفى ، ولكن تبرز شخصية "أكرم العابد" الفلسطيني المهاجر إلى أمريكا الذي وجد أن أقرب طريق إلى فلسطين عبر جواز سفر أمريكي . فهو اللاجئ المغترب، الذي يعود إلى وطنه ليبحث عن الأمل والتعايش والمستقبل. يلتقي الراوي وأكرم العابد في القدس، وكلاهما يحمل حلما بالعودة غير تلك العودة المريرة، وحلما بوطن لا يشبه الوطن الحاضر. يتفق الإثنان لزيارة سمخ قرية الراوي التي سقطت عام 1948، ويقرر أكرم العابد البحث عن حلم قديم، "بريتا" المرأة اليهودية التي أحبها عمه فارس الفارس في فلسطين، وقررت اللجوء معه إلى لبنان بعد نكبة 1948، ولكنها أعيدت بالقوة إلى طبريا في ظل الإحتلال، وقد اعتزلت الرقص والناس ولم تتزوج. أما عمه فارس الفارس فقد صام عن النساء حتى مات وترك خاتمه الذي أهدته إياه بيرتا.

لم يكن الراوي وحده من خسر حلمه وهو من آمن بقوة السلاح من أجل العودة ، وإنما خسر أكرم العابد الحلم الذي عاش من أجله وهو الطرف الآخر الذي يؤمن بالسلام والتعايش مع

اليهود في ظل الثقافة الأمريكية . " الفلسطيني اللاجئ ، المغترب ، يعود إلى وطنه ليبحث عن الأمل والتعايش والمستقبل .... سنصدر أنا وبيرتا نداء من أجل السلام العادل...."(24) لذلك يستدعي المصورين والصحفيين ليصوروا لقاءه مع هذه المرأة التي تشبه الوطن ، فإذا بيرتا ليست هي المرأة التي حلم بها وحلم بلقائها، ليعيد خاتمها الذي أهدته إلى فارس الفارس.

وجد أكرم العابد بيرتا امرأة عجوزا غير قادرة على الكلام، ولا تعرف الآخرين إلا من خلال اللمس، وقد ساد صمت في منزلها أربك الجميع ، فلم يكن هناك حوار كما كان يحلم ويتوقع، وأطفأ طاقم التصوير الإضاءة، وتساءل العابد: " أين المشاعر التي صدحت ذات يوم في مهرجان حب جسور ؟ أين الماضي ، أين الحاضر؟ ...." (25)

تساؤلات ظلت تبحث عن إجابات تعيد حلمه بعد خمسين عاما في المنفى، وقد ارتسمت أقصى حدود الخيبة على وجهه، وبدا جريحا ومهزوما وشاحبا. وضع العابد الخاتم في يد بيرتا العجوز وقد احتضنته في كفها "هل ارتعشت ملامحها، هل هزت الذكرى قلبها الضعيف، هل التمعت مآقيها وترقرقت دمعة في عينيها؟ ظلت السيدة تطبق يدها على الخاتم...ثم وقفت وهي ترتعش مستندة إلى عصاها، قالت الخادمة: انتهى اللقاء أيها السادة." (26)

لقد حاول أكرم العابد أن يبرز حالة التعايش بين الفلسطيني والإسرائيلي ولكنه فشل، واكتشف أن "بيرتا" لم تكن سوى حلم في الماضي البعيد الجميل، وأن الحاضر أكثر اغترابا وخيبة ويأسا، وأن التعايش لا يمكن أن يتم في ظل الحواجز الإسرائيلية وحالة الخوف والرعب التي تسود مجتمعهم ، لذلك ينتهي زمن السرد الراوئي بحوار حاد يهدد فيه العابد الجندي الإسرائيلي بقنبلة سوف يفجرها صارخا في وجهه " القنبلة موجودة داخل صدري... في أعماقي .. حذار من الاقتراب فقد تنفجر بين لحظة وأخرى .." (27) لقد تحول أكرم العابد الداعي إلى السلام ليكون قنبلة موقوتة في وجه عدوه، واكتشف أن صفحة التعايش التي جاء يبحث عنها ملأى بالتجاعيد.

لقد كان الدم الذي سال من جبين الراوي حين امتزج الواقع بالحلم صدمة أيقظت الثلاثة أكرم العابد ومجد والراوي ، وقد أيقنوا أن أحلامهم التي حملوها عبر سنوات طويلة في المنفى قد انهارت في يومين ، فبيرتا الحلم انهارت صورتها الجميلة ، وسمخ الحلم الذي رسمها الآباء والأجداد قد انهارت ، وجثة عبد الكريم الحمد لم يستطيعوا الوصول إليها ، ومجد كان عليها أن تحسم أمرها لمن تكون .

إن هذه الأحلام التي بنتها مخيلة الآخرين وسنوات المنفى انهارت في لحظة ، وسال الدم ليستفيق الثلاثة على واقع مغاير، إذ يجمعهم مكان واحد وهي السيارة التي أقلتهم من القدس إلى الماضي البعيد حيث نكبة عام 1948 ، وزمان مشترك هو الحاضر السردي الذي خيب أحلامهم العظيمة

، لذلك قرر الثلاثة أن يعودوا إلى القدس وقد استرجعوا حلم العودة ، ولكنه لـيس الحلـم الـذي رسمته المنافي ، وإنما حلم يبزغ ويطل مع الفجر من رحم الواقع المعيش ، فكانت عودتهم إلـى القدس بسيارة واحدة، إذ يوحدهم المكان بحلم جديد وعودة تنطلق من أرض الوطن المسروقة.
وإذا كانت صورة سمخ قد انهارت وصورة بيرتا قد تغيرت وتحولت ، فعلى عاتق العائدين تقـع مسؤولية رسم صورة جديدة لحلم جديد يشبه الأمكنة الثابتة ، لأن الأزمنة تتغير.

1-3 ثنائية المنفى والوطن في صورة المرأة:

تطل مجد الفلسطينية امرأة الزمن الحاضر، وهي المرأة التي طاردها الراوي وهـو فـي منفاه عبر مكالمات هاتفية وحنين لاينتهي، إذ يتواعدان على اللقاء في كل صيف ، وهـي فـي الداخل وهو في الخارج ولكن اللقاء لم يتم، " ومع السنوات والتوتر الـدائم فـي حياتنـا فقـدت الكلمات بريقها ولم يعد هناك لهفة في صوتها فتوقفت عن الاتصال ، ولـم تحـاول بـدورها أن تتصل بطريقة أو بأخرى وظللنا أصدقاء مع وقف التنفيذ." (28)

تظهر مجد في زمن السرد الحاضر، ولكنها تعد امتدادا لمرحلة زمنيـة فائتـة أصـابها الترهل، وأفرزت حاضرا ضبابيا غير واضح الطريق والمعالم. مجد امرأة من لحم ودم ، ولكنها تجسد حالة التناقضات التي يعيشها المجتمع الفلسطيني الحاضر في ظل ثورة لم تحقـق نصـرا. لقد كان لقاء الراوي بمجد في غزة، إذ جاءت لتراه بعد الاتصال به " تصافحنا كأننا نلتقـي لأول مرة مصافحة عادية تخلو من شيء خاص .. لقد كبرت ورحل بريق خاص من عينيهـا وبـدأت التجاعيد تحبو تحت جفنيها." (29)
لم يكن الوطن كما حلم به الفلسطيني العائد ، لأن العودة لم تكن كما يتمناهـا الجنـدي الشـجاع عودة مظفرة ، فلم يبق من الوطن سوى أرض تغيرت معالمها وواقع امتلأ بالمفارقات، وضبابية في الرؤيا، وتجاعيد تغلف صورة حاضر أفرزه الظرف السياسي، فكانـت النتيجـة مـا يـراه الفلسطيني على أرض الواقع من تجاعيد وضبابية.

تذهب مجد في رحلة مع الراوي وأكرم العابد باتجاه سمخ وطبريا، وتنطلق السيارة من القدس إذ يلتقي الفلسطينيون الثلاثة في منتصف المسافة ما بين سمخ وغزة. تقف مجد المرأة المقدسية في منطقة وسط بين رجلين، إذ تحاول استمالة الراوي مرة، ومرة أخرى تتجه بمشاعرها نحو أكرم العابد، فهي تجسد زمن الحاضر الذي شعر فيه الراوي بمرارة الخيبة واليأس والاغتراب في وطن حلم به، فابتعد عنها رغم مطاردته لها وهو في المنفى .

تتجه مشاعر مجد في بداية الرحلة نحو أكرم العابد، وقد شعرت بالخوف والقلق من ممارسات الجنود الإسرائيليين أثناء الرحلة وهم يفتشون السيارة، وهذا الخوف دفعها باتجاه أكرم

العابد لتبحث عن الأمان في علاقتها معه، مما دفع الراوي إلى الابتعاد، ولكنها التصقت به حين تركها العابد وذهب يبحث عن بيرتا، فتحولت عواطفها، وتساءل الراوي، " كيف تحولت عواطفها نحوى ... لماذا أقلعت عن التفكير في السيد أكرم، واستيقظت أحاسيس جديدة تجاهي. أهي مشاعر أليفة أم هو تعاطف عابر.. لا هذا ولا تلك .. إنها لحظة إحساس مشترك بالضياع .. إنه نداء غريب لغريب. "(30)

الراوي ومجد كلاهما يشعران بالضياع في أرض البحيرة وفي سمخ، فهما العربيان في مجتمع يهودي على أرض الآباء والأجداد، "غريبان بين اليهود والبيوت المهودة. لا أحد يشعر بالأحاسيس التي تصطخب في أعماقنا. "(31)

مجد امراة فلسطينيه تميل بأحاسيسها ومشاعرها نحو الراوي، فكلاهما يتشابهان في الماضي، ولكنها تحاول أن تبحث في حاضرها عن شبيه آخر يختلف عن الراوي الذي مازال يسكن في الماضي، والماضي يسكن فيه. تحاول مجد أن تقيم علاقة جديدة في حاضرها تقوم على فكرة السلام والتعايش، في حين أن الراوي يرفض هذا الحاضر ولا يؤمن به، لأنه حاضر حزين ومأزوم في ظل الاحتلال.

تمثل مجد في اللحظة التي وقفت في منتصف الطريق بين الرجلين الواقع الفلسطيني الداخلي، وهي ترمز لطبقة من الفلسطينيين الذين يؤمنون أن حل القضية الفلسطينية يمكن أن يتحقق بالطرق السياسية واللجوء إلى المنظمات الدولية، فهي امرأة تمثل فلسطين الواقع لا الحلم الذي عاشه الراوي في منفاه، ولم تستطع أن تحسم أمرها لمن تكون إلا حين حسم أكرم العابد موقفه، واكتشف أن التعايش الذي جاء يبحث عنه لم يكن سوى وهم وصفحة ملأى بالتجاعيد.

وأثناء العودة إلى القدس بعد انتهاء الرحلة، عادت مجد تطرح فكرة الاستعانة بالرأي العام والعرب في الكنيست والصحافة لإثارة قضية عبدالكريم الحمد، ولكن أكرم العابد حسم الأمر قائلا "لا فائدة ....لا فائدة. "(32)

لقد اتسم زمن السرد الحاضر بضبابية وحالة خيبة واغتراب دفعت الراوي إلى العودة إلى الماضي حيث المنفى عبر تقنية الاسترجاع، إذ تعد هذه التقنية السردية أكثر التقنيات التي وظفها الراوي في زمن السرد الحاضر لتجاوز آلامه ومرارته، فكانت حكايات المنفى وذكرياته هي وسيلته لمواجهة الاغتراب وقهر اللحظة الحاضرة . في المقهى يعلو صوت المغنية التونسية" لعل صاحب المقهى رغب في إرضاء زبائنه من العائدين الذين قدموا من تونس، لعله أراد أن يثير ذكرياتهم ."(33)

لقد كان المنفى في الرواية الفلسطينية بصورة عامة يمثل حالة القهر والضياع والغربة، ولكنه في رواية "نهر يستحم في البحيرة " يصبح جميلاً بهياً، يشتاق له الفلسطيني العائد إلى الوطن، وهذا الشوق والحنين جاء نتيجة حالة اغتراب وتأزم نفسي في الحاضر بعد العودة إلى الوطن عودة مهزومة في ظل الاحتلال.

لم يجد الراوي العائد إلى الوطن تعويضا عن اغترابه سوى ذكريات جميلة عاشها في تونس مع عائشة رغم مرارة الغربة عن الوطن . إنها مفارقة تتسم بالغرابة إذ يستعين الراوي بذكريات المنفى البعيد عن الوطن لمواجهة الزمن الحاضر في أرض الوطن الذي حلم به، هذا الزمن الذي خيّب الآمال ، ولم تعد فلسطين الحلم هي ذاتها فلسطين الواقع الذي يعيشه بعد عودته المريرة والمشروطة بظروف سياسية مهزومة، هزمت الفدائي وحولته إلى لاجئ في وطنه.

" المنفى جميل لأن الأحلام جميلة والوطن صعب لأنه مثخن بالجراح وتتكسر فيه أجنحة الخيال. فلسطين الحلم ليست فلسطين الواقع : للفلسطينيين في الخارج حلمهم الجميل الذي يسكنون فيه منذ ستة وأربعين عاما . فليحرس الرب تلك الأحلام." (34)

لم يجد الراوي طريقة يتجاوز فيها اغترابه في لحظة السرد الحاضر سوى اللجوء إلى حكايات من المنفى يتماهى معها في محاولة لمواجهة الواقع المرير، إذ " تتسع الفجوة وتتعمق بين واقعه الهزيل وأحلامه الضائعة ، ومن هنا ، إن الإنسان في مثل هذه المجتمعات المستبدة قد يضطر إلى تقبّل واقعه، ولعله يفقد الجرأة على أن تكون له أحلام وطموحات تتجاوز عجزه . تلك هي أقصى أنواع التدجين والتهميش والإفقار ."(35)

تعد مجد امرأة الزمن السردي الحاضر الذي شعر فيه الراوي بمرارة الخيبة واليأس والاغتراب في الوطن ، فابتعد عنها رغم مطاردته لها في الماضي البعيد، ليعود بذاكرته إلى تونس وعائشة والحب في المنفى ، لعل هذا الاسترجاع يخفف وطأة الاغتراب في زمن الحاضر، وهو يرى واقعا لا يمت بصلة لحلم عاشه سنوات في المنفى.

لقد أدرك الراوي أن عبء الوطن المفقود وهو في المنفى كان أقل ثقلا من عبئه وهو في غزة، فقريته سمخ بعيدة، وماضي الطفولة الجميل مازال يحلم به، وحنين إلى الوطن في داخل الوطن يؤلمه. وفي ظل حالة الاغتراب التي يعيشها الراوي في الوطن. يشتاق إلى المنفى وعائشة التونسية المرأة التي أحبها، "يا عائشة ... ليمتلئ قلبك بالفرح ... أتذكرك تحت سقف النار، وتحت سقف الجنون. هنا، على الرغم من الازدحام، أجد نفسي وحيداً لا أملك سوى الماضي . أبحث عن حلم تشبثت به وتمنيت أن أمسك به بيدي كلتيهما ... يا عائشة ،... أبحث في الماضي عن لحظة سكنية ..." (36)

لم يملك الراوي في ظل إشكالية الحاضر سوى الهروب إلى المنفى، لأنه وجده أكثر جمالا، لذلك لم يكن أمامه سوى حكايات الطفولة، يرويها عن خاله عبد الكريم الحمد في قريته البعيدة ، وحكايات سمعها من الآباء والأجداد لأنه لا يمكن مواجهة زمن الحاضر السردي إلا بحلم من الماضي ، إذ اكتشف الراوي أن هذه العودة المهزومة لم تتنازل عن الأرض فقط، وإنما سرقت الحلم والماضي، ولعل فقدان الحلم كان أكثر كارثة من خسارة الأرض. لقد عاش الراوي العائد مفارقة مؤلمة، فقد وصل إلى قناعة أن المنفى رغم مرارته أكثر جمالا من الواقع المعيش داخل وطن حلم به ، إذ اكتشف أنهم سرقوا حلمه بعد أن سرقوا الأرض.

يواجه الراوي واقعه بالحكي، لأنه لم يبق له سوى حكايات من المنفى وأحلام من الطفولة يسردها في زمنه الحاضر ، يفتش في الذاكرة فتطفو على سطحها الحكايات التي تعيده إلى حالة توازن نفسي في حاضر ينهار وماض بالأمس كان فيه الصمود والنضال.

1-4 التماهي مع حكاية الآخر في مواجهة الواقع السردي:

تظل الرواية فنا لغويا سرديا لا يمكن أن يكتمل في إطار منظومة عناصر محددة ،وإنما تخضع لمقولة التجريب من خلال إستراتيجيات فنية متنوعة تسعى إلى تقويض النموذج والنمطية وتطمح إلى أن تجعل الكتابة داخل الجنس مفتوحة. فالروائي يبحث دائما عن تشكيلات جديدة للرؤى التي تنبع من الواقع، إذ "يلهث الخيال الروائي، الذي يتأبى على القيود، وراء عوالم مختلفة، تنبذ، مهما تكاثرت، صيغة الواحد والثابت والمتعالي والمعطى النهائي...،اتكاء على منظور لا يعترف بالقواعد المسبقة ولا يأتلف مع المعطيات الموروثة الساكنة. وحركته الطليقة، تأخذ بيده إلى أزمنة متنوعة ولغات متعددة وأنواع من البشر مختلفة، وتدعه يقف أمام عوالم الإنسان الداخلية والخارجية، بل تغويه بخلق ما شاء من العوالم ."(37) لذلك سعى الراوي للتعبير عن ذاته وواقعه من خلال التماهي مع صورة الجندي الياباني "أونودو"، إذ تطفو حكاية الجندي على سطح السرد في زمن الحاضر. فالراوي لم يستطع مواجهة الواقع إلا بسرد الحكاية، إذ يمتزج الخيال بالواقع في محاولة للبحث عن حرية فقدها في ظل الحياة اليومية التي تتسم بالمرارة والاغتراب بعد العودة إلى الوطن المفقود .

لم يبق للراوي سوى الحكي، ليقول لذاته وللآخرين إنه ما زال على قيد الحياة ، وإنه يمتلك قدرة المواجهة رغم عجزه عن تحقيق العودة الكاملة في ظل حاضر مرير ، لذلك تظل الحكايات الشاهد على قدرته في المواجهة من أجل كسب معركة الحياة .

يخرج الجندي الياباني " أونودو " من قمقمه ، وتمتزج حكايته بحكاية الراوي عبر مشاهد مسرحية تمتزج مع السرد الروائي . أونودو " ما الذي جعله يخرج من القمقم ، فلقد حبسته بين

دفتي دفتري الذي أكتب به ومنعت نفسي طوال شهرين كاملين من فتحه لئلا يخرج من بين السطور ويهبط على الأرض . تركته بين دفتي دفتري الكبير الذي أكتب على أوراقه خواطري ... وهذه المرة جمعت مادة لا بأس بها عن أونودو لتكون موضوعا لنص مسرحي ولد في مخيلتي في جو الجنون الذي أثاره اتفاق أوسلو." (38)

يحاول الراوي مواجهة الحاضر المجنون والمهزوم والمستسلم باستحضار شخصية أونودو الجندي الياباني من الماضي، ليقفز فوق جنون الحاضر وغربته بحكاية ماضوية تعيد الراوي إلى ماضيه البطولي حين كان فدائيا يحلم بعودة المنتصر. لقد كان أونودو جنديا يابانيا عظيما لم يستسلم للهزيمة في أغسطس 1945م، وظل مرابطا في جزيرة نائية في اليابان معتقدا أن الحرب لم تنته، وأن بلاده ما زالت تقاتل ضد الولايات المتحدة ، لذلك عندما أسقطت الطائرات الأمريكية قصاصات من الورق تعلن فيها استسلام اليابان اعتبرت القوات اليابانية أن ذلك يدخل في باب الحرب النفسية، لذلك فإنها لم تأبه لتلك القصاصات، وواصلت التمسك بمواقفها ، ومن بين هؤلاء كان الجندي الشجاع هيرو أونودو.

تطل حكاية أونودو في مشهد مسرحي يجسد حالة التحدي، إذ يعلو صوته معبرا عن صموده في الجزيرة النائية منتظرا عدوه بشجاعة، " طال انتظاري وترقبي لذلك العدو الجبان الذي سيحاول أن ينزل جنوده على شواطئ هذه الجزيرة المهجورة ." (39) وفي مشهد مسرحي يصرخ الجندي الشجاع " لن يمروا ، لن يمروا.. "(40)

يتوحد الراوي مع أونودو حتى التماهي ، لأن حالة الاغتراب والعودة المهزومة جعلته يتماهى مع حكاية رجل شجاع ، يحكي حكايته ، وتقفز شخصيته بمشاهد مسرحية تتخلل زمن السرد الحاضر الذي يتسم بالمرارة والهزيمة . فالراوي لم يمتلك في واقعه الحاضر سوى حكاية أونودو التي تحولت إلى أسطورة تجسد حالة الصمود، فقد عاش الجندي وحيدا في الجزيرة النائية يتعلم لغة الطيور والطبيعة، ونسي الكلمات والمفردات وهو ينتظر عدوه سنوات ، إذ لم يبلغه أحد أن بلده قد هزمت، واكتشف في السنة الثامنة أن سلاحه قد أصابه الصدأ، " فتمنى لو أنهم هناك في القيادة قد أرسلوا له خبرا عن مجريات سير المعركة . لكنهم في القيادة لا يفعلون شيئا... لكنهم لا يفعلون شيئا."(41)

اختار الراوي حكاياته من ثقافات مختلفة، فبرزت حكاية أونودو الجندي الشجاع، وطفت على سطح السرد حكاية الضابط الهندي كارانج الذي يتسم بالنبل والشجاعة وحب أهل المخيمات الفلسطينية له . لقد أضفى الراوي بعدا إنسانيا وأسطوريا في اختياره لشخوص حكاياته،

لأنه يسعى إلى منح حالته وقضيته البعد الإنساني العظيم ، هذه القضية التي تحولت في حاضرها إلى عبء على بعض من حملوها.

في مشهد مسرحي أخير تقفز شخصية أونودو رافضا سجنه في دفتر مذكرات الـــراوي، صارخا في وجهه " دعني أتحرر وأخرج من سطورك الباهتة." (42) يحلم الـــراوي بـــأونودو، ويراه يركض وهو خلفه " يصعد تلة ، وأصعد وراءه ، يدوس الشوك والأسلاك الشائكة ، وأدوس خلفه ، يصعد ويصعد..." (43) يستيقظ الراوي من الحلم وإذا بخيط من الدم يسيل مـــن جبينـــه والأشواك عالقة بجسده .

انتهى زمن السرد الحاضر نهاية أعادت الراوي إلى حلم امتزج بالواقع من خلال حكايـــة أونودو الجندي الياباني الذي رفض الاستسلام رغم هزيمة بلاده ، وقـــال: لا، لأن شـــيئا فـــي أعماقه كان يرفض الهزيمة، ويرفض إعادة تأهيله وتدجينه ، فبحث عن الحلم والحريـــة حيـــث الأرض والسماء والفجر يطل من وراء التلال ، والراوي في حلمه يركض وراءه ويستصـــرخه أن ينتظره ليأخذه إلى عالمه الخاص، لأن الحلم سيمنح لحياة الراوي في وطنه معنى جديدا .

أراد يحيى يخلف في رواية "نهر يستحم في البحيرة" أن يسترجع حلما فقده أثناء عـــودة مهزومة، ولكن هذا الاسترجاع سيكون على أرض الوطن، إذ لا تشـــبه أرض المنـــافي البعيـــدة ولكنها أرض صلبة حقيقية وواقعية ، فالنهر لن يغير مساره، والبحر سيبقى في مكانه .

لقد تجلت في الرواية ثنائية الحكاية والحلم لمواجهة اغتراب الشخصية في واقعهـــا الحاضـــر، إذ الحكاية تمتد إلى جذور ماضوية، والحلم استباق زمني يقفز فوق اللحظة الحاضرة . وتعد حكايات الماضي والحلم في النص السردي أداوت الروائي في مواجهة الواقع، لأن الأعزل لا يملك سوى الكتابة، لتكون جوابا على اغتراب الإنسان المعاصر في واقعه القاسي.

إن تغيير الواقع يبدأ بحلم عظيم ، ولعل هذا ما دفع أونودو إلى القفز من دفتر المذكرات، ودفع الراوي إلى السرد والحكاية ليسترجع حلمه المفقود ، لقد قفز أونودو باحثا عن حلـــم جديـــد يرفض فيه التدجين في ظل الهزيمة ، ويبحث عن حياة جديدة، فيختار الحرية واستنشاق الهـــواء في جزيرته التي رفض فيها الاستسلام.

يؤكد الراوي حقيقة أن السرد كان محاولة للقفز فوق ذكريات الماضي وتجاوز المفارقـــات التي عاشها العائد، وكانت أكثرها قسوة ومرارة تتمثل في اجتراره أحلام المنفى التي يراها أجمل من أرض الوطن، لذلك سال دمه ليعي حقيقة وجوده على الأرض، وأنه سيصنع حلما جديدا مع العابد ومجد على أرضهم ، فيعودون إلى القدس من حيث أتوا ، ليرسموا صورة هذا الحلم الـــذي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل بقعة من أرض الوطن .

وإذا كان البعض يرى أن هذا النص الروائي يجسد خيبة أمل العائد، فإنني أرى فيه استرجاع حلم ينبثق من رحم الواقع الجديد رغم كل تعقيداته وخيباته. فالرواية تشهد على صدمة لقاء العائد بالوطن بعد طول الغياب إلا أن الحرب لم تنته وفصول الصراع ما زالت مستمرة، وقد أكد الكاتب على استمرارية الصراع من خلال تماهي الراوي مع شخصية المحارب الياباني.

إن فقدان الحلم أشبه بحالة الموت البطيء ، وقد واجه الراوي هذا الموت بالسرد والحكاية واسترجاع الماضي البعيد ووصف الأمكنة والحلم في محاولة لمواجهة الواقع، وهذا يعيدنا إلى أسطورة شهرزاد التي واجهت الموت وسرقة الحياة بالحكاية.

لقد أحالت التناقضات الإنسان العربي المعاصر إلى كائن مغترب يعيش حالة رعب ومصادرة جسدية وروحية تدفعه أحيانا إلى الخضوع والاستسلام، لكن تظل الكتابة هي الأداة الأكثر قوة في مواجهة الموت، إذ تتجلى شهرزاد من جديد تواجه واقعها المهدد بالموت بالحكايات والسرد وقد كسبت معركة الحياة وانتصرت على مصيرها بحكاياتها التي امتدت ألف ليلة وليلة، "لقد نجحت في تفادي قدرها المحتوم لأنها عرفت كيف تستعمل سلاح القلق، وهو الوسيلة الأدبية الوحيدة التي تؤثر في الطغاة والمتوحشين ... لقد بقيت شهرزاد حية لأنها نجحت في إبقاء شهريار حائرا لا يدري ما الذي سيحدث في أعقاب ما تسرده عليه". (44)

-2-

يواجه يحيى يخلف في روايته الأخيرة "ماء السماء(2008)" الواقع السياسي العربي المأزوم في مراوغته تجاه حق العودة إلى فلسطين التاريخية . فالروائي يرتبط مع واقعه بعلاقة جدلية يعبر من خلالها عن فلسفته تجاه الكون و الحياة والإنسان من منظور معطيات الواقع الذي يعيشه، وتعمل هذه المعطيات على تشكيل تجربته الإبداعية. " إن الرواية تكاد تكون أكثر الأجناس الأدبية حساسية تجاه المجتمع، فالنسيج الروائي كشبكة مؤلفة من شخصيات وحوارات ولغة، إنما يشابه نسيج الوجود الاجتماعي في تكونه من العناصر إياها شخصيات وحوادث ولغة."(45)

"إن استقلال عملية الإبداع الفني بمنطقها الداخلي الخاص لا يعني انغلاقها عن الواقع انغلاقا هو المستحيل،"(46) لذلك يظل النص الأدبي ، والرواية بصورة خاصة بين مطرقة الرؤيا وسنديانة التشكيل، فالمبدع يتحول من مهندس للحياة كما يقول مكسيم جوركي" إلى مثقف وصانع من صناع فلسفة الحقبة ، التي تدرأ عن "المجتمع المدني" محاولات الاختراق والتهديم. "(47)

وتعد المعطيات السياسية هي أكثر معطيات الواقع إثارة للجدل ، فتدفع الأديب الذي يحاول مواجهة هذا الواقع المأزوم بالكتابة "إن الروايات السياسية العربية تشف عن واقع ما

وراءها ، بل إنها لتجد جزءا غير يسير من جاذبيتها وفاعليتها في ارتباطها الوثيق بذلك الواقع"(48)

و إذا كان الراوي بطل رواية "نهر يستحم في البحيرة" يسرد بضمير المتكلم حكاية عودته و عودة بعض الشخصيات إلى الوطن المحتل في ظل اتفاقيات أوسلو ومظلة الاحتلال، فانه يتحول إلى راوٍ عليم بضمير الغائب في رواية "ماء السماء" ليبدأ الحكاية من أولها، فهو لا يحكي حكايته الخاصة، وإنما يروي حكاية شعب اقتلع من أرضه بصورة قسرية عام 1948، إذ يكتب ملحمة هذا الشعب بكل عذاباته وآلامه وصموده ومقاومته. وتمثل كل شخصية في رواية ماء السماء نموذجاً للإنسان الفلسطيني الذي تعرض ومازال لحالة الهجرة القسرية و المنفى. فالراوي يواجه الواقع المعيش بالحكاية و السرد، ليثبت حق العودة، ويؤرخ لمرحلة تاريخية في حياة الفلسطيني بدأت في زمن اللجوء والشتات. فالمبدع لا ينسلخ عن واقعه الذي يواجهه أحيانا بالإبداع حين يعجز عن قبوله في ظل معطيات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، لذلك لا يبقى أمام هذا المبدع سوى النص يوجهه إلى المتلقي في محاولة لسبر أغوار الواقع ومواجهته. فالجرح لا يبرأ إلا إذا كشف للضوء والهواء كي لا يتعفن ، ولعل الأديب هو الأكثر قدرة على ممارسة هذا الكشف وتعرية الواقع كي لا يتعفن . ويرى حسين مروة أن الواقعية هي" نتاج العلاقة التفاعلية الخلاقة بين الآلية الداخلية المستقلة لعملية الإبداع الأدبي والفني وبين الآلية الداخلية المستقلة لعملية تطور الواقع "(49)

يكتب الروائي للآخر نصا يستخدم فيه مفردات اللغة باعتبارها المادة الأولية الخام لتشكيل النص الروائي، "إن الذات نفسها هي شبكة متقاطعة من الآخرين (...). فبما أن الهوية السردية ليست جوهرا قائما بذاته، بل إشكالية مفهومية قائمة على البقاء في الزمان ، ومن خلال التقاليد اللغوية التي ينقلها السرد ، فان قوام الذاتية ، ليس الوجود للذات ، بل الوجود للآخرين ومعهم وبينهم في حركة لا انقطاع لها من الأفعال الحاضرة والماضية والمستقبلية التي ينقلها تراث سردي حاضر ، وتقاليد جاهزة تسبق وجود الذات الفعلي. "(50)

يقول يحيى يخلف في نهاية الرواية على الغلاف "في زمن اللجوء و الشتات ، والحياة في مخيمات اللاجئين تحول الإنسان إلى رقم في سجلات وكالة الأمم المتحدة لغوث و تشغيل اللاجئين، وتم إغفال تراجيديا المأساة ،وتفاصيل الحياة التي هي في الواقع منظومة هائلة من السرديات التي تمتلك الإيقاع الحزين ، وصراع البقاء، وقوة الإنسان في الصمود، وقدرته على التشبث بالأمل، وحماية الذاكرة والهوية ، وإيمانه بحقوقه الوطنية، وفي المقدمة حق العودة.هذه رواية أولئك البسطاء ، الذين استطاعوا أن يواجهوا مكر التاريخ. "

2-1 عتبة النص: العنوان والاستهلال السردي:

يوحي العنوان " ماء السماء " بدلالات عدة تجلت في العبارة الأخيرة في النص، وجاءت على لسان أبي حامد أحد الفلسطينيين المهجرين من قرية سمخ في نكبة 48، " قال أبو حامد بصوت لا يخلو من شجن: هذا الذي ينزل علينا ليس مطر الغيوم... إنه الغيث... إنه ماء السماء."(51)

من يتأمل النظر في الشخصيات والأحداث، يتجلى له حجم الكارثة والمأساة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني في نكبة 48 ، إذ تكشف الأحداث الروائية عن اللجوء والتشرد والضياع في المخيمات. ولا يمكن لهذه النكبة أن تنتهي آثارها التي دمرت الإنسان الفلسطيني والحجر والشجر وخلقت واقعاً مأساوياً لايمكن تبديده إلا بماء سماوي، يكشف الظلام وينهي حالة الضياع التي أصابت الفلسطيني بعد خروجه من وطنه .

وإذا كان ماء المطر قد عذب الفلسطيني في خيام اللاجئين، فإن ماء السماء هو الغيث الذي سينزل من السماء ليكون رحمة وعدلا في زمن غاب فيه العدل والحق، وساد الظلم والظلام.

ومن الدلالات الأخرى للعنوان، فقد كان "ماء السماء" اسم الطفلة التي ولدت في زمن النكبة ووجدها أبو جامد في لفة من قماش تحت الشجرة، فحملها إلى زوجته وتبنياها بعد أن تركها والداها يوم احتلال بلدة سمخ، ولم يعلم أحد ابنة من هي؟ هل نسيها والداها ، أو لعل حجم المأساة جعلتهما يفران دون أن يتذكرا طفلتهما .

حملت الطفلة الصغيرة مجهولة النسب اسم "ماء السماء"، لتجسد النكبة التي أصابت الفلسطيني يوم ضاع وطنه وأصبح لاجئاً لا أب له ولا أم، فضياع الوطن يعني ضياع الوجود، ولايمكن أن تتحقق العودة إلا حين يعود الفلسطيني إلى سلاحه، وتتوحد الرؤى في ظل غيث سماوي. لقد جسدت الطفلة ماء السماء والطفل ماهر الجيل الآتي الذي سيحمل شعلة الثورة، ويناضل ضد الاحتلال من أجل استعادة الأرض والكرامة .

يستهل الراوي روايته "بعيداً عن سمخ، وبحيرة طبريا ، الحياة موحشة. صمت وهموم وانتظار . هنا في سفح الجبل، رائحة الحياة المعدنية التي تنبجس من باطن الأرض ، ورائحة الخطر الذي يشي بالكوارث. ينام راضي نوماً قلقاً. يتقلب ذات اليمين ، وذات الشمال كأنه ينام على حصى ، وعندما يعز النوم يمضي الوقت في عد النجوم بعيداً عن سمخ ، الخوف والانتظار، والليل الذي قد ينهد وينهار ، وفوق هذا كله أسراب البعوض التي لا تهدأ و لا تستقر . صمتت المدافع في الميدان ولم يعد الرجال بعد. مازالوا يتراجعون من موقع إلى موقع." (52)

يحكي الراوي حكاية شعب من بدايتها حين أجبر أهل قرية سمخ باعتبارهم نموذجاً للاقتلاع القسري على المغادرة إلى شرق النهر في محاولة للفرار من عصابات الصهاينة ووجدوا أنفسهم في مخيم اللجوء ينتظرون العودة والعمة حفيظة تقوم بمسؤوليتها تجاه أهل القرية حتى يعود الرجال "مرت أيام أخرى تشبه الأيام التي سبقتها ، لكن الأمور أخذت تزداد صعوبة و بدأ التعب يظهر على الوجوه، كما أن العمة أصبحت شديدة النزق ." (53)

2-2 الشخصية الروائية في مواجهة الواقع:

يعد نص "ماء السماء" رواية أحداث وشخصيات عاشت عام النكبة، وشهدت أحداثها من بداية الهجرة القسرية إلى مخيمات اللجوء في البلاد المجاورة، إذ يسيطر الخوف على الفلسطيني منذ أن ترك وطنه، ومازال يعيش حالة الانتظار والترقب حتى تتحقق العودة .

تعد شخصية راضي بطل الرواية - ابن الثانية عشرة من عمره- الأكثر ألماً ووعياً لحجم الضياع الذي أحدثته النكبة ، فيتذكر سمخ وبحيرتها و أرضها وموسم جني المحاصيل وينتظر مع النساء عودة الرجال. وحين عادوا " نام الرجال في الحظيرة .. ناموا جنبا إلى جنب مع الدجاج والماعز والفرس الأصيلة ، والبغل العجوز . ناموا أو تظاهروا بالنوم ، لكن أحدا منهم لم يحرك ساكنا. ونام راضي قربهم . ظل الصمت والظلام يغمران بيت الشعر ..بيت النساء صدمهن واقع الحال . انتظرن وطال انتظارهن، وعندما وصل الغيّاب ، وصلوا أجسادا بلا أرواح ...."(54)

يتوحد الراوي مع شخصيات الرواية حد التماهي ، فهو يتواصل مع الماضي عبر تقنية استرجاع حكاية اللجوء القسري منذ البداية ليثبت حق العودة في مواجهة الواقع .

يعبر الحاج حسين أحد رجال قرية سمخ عن ألمه وحزنه بصوت يشبه الندب، وكأنه يؤبن نفسه والماضي الجميل بقوله، " منذ الآن ستأكل الغربة طبقات من أقدامهم، فمنذ الآن سيعرفون مذلة الغربة ومرارة الشتات. من الآن فصاعدا يتبدد شمل أهالي بلدنا ويتوزعون في المنافي ، فلعلهم يجدون صدرا فيه الحنان والرأفة، لعلهم يجدون ظلا ظليلا يقيهم حر الأيام ..." (55) وتمر الأيام ومرارة المنفى في الحلوق وأمل العودة مازال ماثلا في ذاكرة الفلسطيني تتوارثه الأجيال .

وتتوالى حكايات الراوي ، وينتقل من شخصية إلى أخرى في أحد المخيمات الفلسطينية في إربد، ولكن ما يجمع هؤلاء الشخوص هو قدرتهم على الحياة والتشبث بالأمل على الرغم من مرارة المنفى وألمه، فقد استطاعوا أن يواجهوا واقعهم المرير وأن يستمروا رغم فداحة ما حدث، " الحياة تمضي في المخيم على الرغم من المكابدات و الأحزان ، وتقلبات الطقس ، وما أحدثته المأساة من تغيير .تكسر النسيج الاجتماعي، وتكسرت الطبقات ، ومع مرور الأيام أصبح أغنياء

الماضي فقراء ، وتساووا مع غيرهم من اللاجئين، فبعض العائلات ذات المكانة المرموقة أمـــام البلاد ، اضطرت إلى مصاهرة عائلات كانت وضيعة في نظرها."(56)

وبالنظر إلى شخصية الحاج حسين أحد وجهاء قرية سمخ فقد حوّله المنفـــى والبعـــد عـــن الوطن إلى حارس يعمل من أجل قوت يومه وتربية ولديه راضي وماهر ، وهو نموذج لشخصية الفلسطيني الذي تجرع مرارة الغربة والمنفى من أجل استمرارية الحياة وتربية أبنائه وتعلـــيمهم ، إذ يصبح ابنه راضي محاميا بعد أن تخرج من جامعة دمشق، ليبدأ العمل السياسي بعد عودته إلى المخيم وقد آمن بالفكر القومي . لقد تحول المخيم من مكان للألم والمرارة إلى بؤرة تنمـــو فيهـــا أفكار التحرر والثورة.

ومن يمعن النظر في زمن السرد يتجلى خط السير باتجاه أفقي ، ولم تكن أفقية السرد فـــي رواية "ماء السماء" تقلل من القيمة الفنية للنص الروائي ، بل استطاع الراوي العليم في الروايـــة أن يغطي جزءا عظيما وكبيرا من حكاية شعب ينتظر عدالة السماء في لوحـــة جداريـــة تجســـد عذابات الشعب الفلسطيني منذ اقتلاعه من أرضه عام 1948، فجاءت الشخصيات تمثل شـــرائح مختلفة لمرارة المنفى، ولكنها تتشابه جميعها في قسوة الحياة وظلمها " الحياة تمضـــي بشـــقائها ، والناس يتحملون المرارة ، ويعتادون عليها ، وذكريات البلاد لا تزال ماثلة ، من خـــلال حســـرة الذكرى ، ومفاتيح البيوت ، ولعنة قسوة الأيام، وخيانة الحكام." (57)

يستحضر الراوي شخصية عبدالكريم الحمد لتبرز بصورة ساطعة في زمن الســـرد فـــي الرواية، فهو الرجل الغني الكريم في الماضي صاحب الفرس الأصيلة التي هاجرت معـــه إلـــى المخيم، تموت الفرس الأصيلة، ويختفي عبد الكريم الحمد، وتحزن أخته خديجـــة " غـــاب عبـــد الكريم ، خرج من بيته ولم يعد ، اختفى وطال غيابه، وكان للأيام المتشحة بالغبار والكالحة مذاق الحنظل ...أين ذهب ، وكيف وماذا حل به ؟ ... قالت خديجة إن عبد الكريم ذهب إلـــى مكـــان قصي، ليموت كما تموت الغزلان ...رواية صدقتها خديجة ، وقالت لراضي وهي تذرف الدموع: إن خالك ذهب ليموت هناك في دار الأمان ، ذهب ليموت كما تموت الغزلان!!"(58)

لم تصب نكبة عام 48 الإنسان فقط وإنما طالت الحجر والشجر والحيوان، فالراوي يجسد المشهد الفلسطيني بكل أبعاده وتفاصيله الصغيرة ، وكأنه يوثق مرحلة فلسطينية بكل تفاصيلها، سواء كانت هذه المرحلة في القرية قبل الهجرة أو في المخيم بعد الهجرة .

أما شخصية العمة حفيظة فتجسد المرأة الفلسطينية الحكيمة في مواجهة الأزمات والكوارث، فقد وليت أمر العائلات بعد أن طلب منها الرجال مغادرة القرية هي ومن معها من النساء والأطفال، وكان راضي ابن أخيها وهو بطل من أبطال رواية "ماء السماء" صبيا حين خرجوا عام

1948،"هنا على البساط ، بجانب العمة حفيظة ينام ، ولكنه يفتح عينيه على سعتهما في هذه القمة ،يصيخ السمع ، لعل العمة حفيظة تنام ويعلو شخيرها ،فيتمكن من المشي والنزول إلى النهر .. العمة حفيظة أيضا لا تنام .. هل تقلق مثله وهي تفكر بالرجال الذين مازالوا يرابطون بين الصخور ويحملون البنادق الصدئة ؟"(59)

ولم تكن العمة حفيظة الشخصية الوحيدة التي جسدت صمود المرأة الفلسطينية، وإنما برزت شخصية بدريه لتكون أكثر الشخصيات تجسيداً للنكبة بمختلف أبعادها وتجلياتها، فهي امرأة قوية تقف مع العمة حفيظة لإدارة شؤون العائلات المنكوبة في مخيم شرق الأردن، وهي المرأة التي تواجه نكبتها برعاية والدتها والعمل في مركز للخياطة من أجل توفير لقمة العيش. ومن خلال عملها واحتكاكها بالآخرين تتشكل لديها معرفة سياسية في المخيم، "فوجئ راضي بمعرفتها واطلاعها على ما يجري في شؤون السياسة ، لقد نضجت ، وتغيرت، فكأنه أمام امرأة أخرى."(60) لقد دفعتها المعرفة السياسية إلى حضور حلقات الحزب الشيوعي ليست كعضوة وإنما نصيرة له ولقضاياه المتعلقة بالمرأة والفقراء والعمال و الفلاحين، وحين طلب منها الخروج في المظاهرات وتوزيع المنشورات ، خرجت وهتفت ضد الاستعمار، "وفكرت في لحظة من اللحظات ألا تذهب .. ألا تشارك في المظاهرة ، لكنها حين أصبح الصباح وضعت المنشورات في حقيبتها، ولبست حذاء خفيفا وشربت كأسا من الحليب وتوكلت على الله. إنها وسط هذه المظاهرة الحاشدة قد انتقلت إلى قلبها شجاعة وقوة الجموع، وزعت المنشورات وهتفت ضد حلف بغداد، وهتفت بسقوط الاستعمار ، واختلط هتافها بهتافات الجموع الغاضبة.." (61)

لم تكن حياة بدرية في مخيم اللاجئين تختلف عن حياة الآخرين الذين ينتظرون وهم غير قادرين على استيعاب أحداث النكبة، ويعيشون ويكدحون رغم مرارة الأيام وقسوتها " الشمس تشرق ، والأرض تدور ، والحياة تمضي على الرغم من الأوجاع والمكابدات واليأس والإحباط . تمضي الحياة بلا مفاجآت ، ولا مسرات ، ومع ذلك يصارع الناس من أجل البقاء ، وتمتلئ الأزقة بالأولاد ، والمخيم الأقرع تتساقط على قرعته الأمطار ، وتلهبه عين الشمس بأشعتها الحارقة ،

تبغي عليه الغبار والأوساخ ونباح الكلاب والأوبئة ، لكن لا يبغي عليه القمر .. القمر وحده يطل عليه ، مثلما يطل على المدن والعمارات والفلل." (62)

لقد انتظرت بدرية خبرا من زوجها نجيب الذي هجرها وطلقها ليلتحق مع جيش الإنقاذ العربي في مواجهة عصابات الصهاينة ، ثم يعتقل بعد نكبة 1948، ويسجن في سجن شطة الإسرائيلي "نجيب،هذا الحلم الذي لم يعترف أن الحرب قد انتهت، المغامر الجسور الذي يشتعل

اللهب في كل أطرافه... الرجل المنسي، الذي غاب وغاب، ثم قرر أن يذكر الناس بوجوده. أهو طلقة في الهواء، أم طلقة مسددة نحو هدف.أي هدف يسعى إليه ؟ البندقية يجب أن يقف وراءهـا فكر سياسي تحرري. انه مقاتل بلا هوية، مقاتل فقط، مقاتل متجول ..احترف حمـل البندقيـة ، وذرع فلسطين من جنوبها إلى شمالها . مسيرته غامضة، ولكنه وطني بكل ما تعنـي الكلمـة .. تخلى عن كل شيء ، عن علاقاته الاجتماعية ، عن مكان ثابت يعيش فيه، عن استقرار نفسـي ، وهدوء داخلي ، وعن الشعلة العاطفية التي كانت تضيء روحه ، شعلة حبه العظيم لبدرية وشوقه العارم وحنينه الجارف لها ." (63)

يمثل نجيب حالة الفلسطيني المناضل الذي وجد نفسه بين ليلـة وضـحاها فـي مواجهـة عصابات مسلحة بكل أنواع السلاح ، ولم يجد أمامه سوى النضال ولو بجسده من أجل وجوده ، لقد قاتل الفلسطيني عدوه وهو لا يعي حقيقة ما يحدث حوله من مؤامرات، ولم يكن يدرك حجـم هذه المؤامرات وأبعادها ، لذلك حارب بجسده وببندقية صدئة معتقدا أنه سينتصر على عدوه .

عاد نجيب إلى الظهور في حياة بدرية من جديد حين وصلت منه رسالة إلى الحاج حسـين عن طريق الصليب الأحمر، ليخبرهم أنه مازال على قيد الحياة "جاءت الرسالة في أرذل سـنوات العمر، في عام جدب وقحط غابت فيه العواطف الإنسانية، واتسخ فيه الهواء." (64)

تجسد شخصية بدرية في النص الروائي الإنسان الفلسطيني بقوته وضعفه معا رغم مـرارة الأيام ، فهي قوية تواجه الواقع الجديد الذي فرضته الهجرة القسرية في المخيم بالعمـل والـوعي السياسي ، ولكن لم تكن مرارة و الحياة ورتابتها بمنأى عن حياة هذه المرأة بعد أن فقدت الأمـل في الحياة وهي تنتظر نجيب، وتنتظر رجلا ما ، وتنتظر وطنا ، لقد أفقـدها الانتظـار الصـبر والقوة وغرقت في حالة اكتئاب نفسي اكتملت بوفاة والدتها أم إبراهيم ، مما دفـع راضـي إلـى إدخالها المستشفى، ولكن قوة هذه المرأة جعلتها تتماثل للشفاء بمساعدة راضي وعائلتـه بعـد أن عاشت معهم في مزرعتهم بعيدا عن المخيم وحاراته .

لقد استأجر الحاج حسين مزرعته في الأغوار وبنى فيها بيتا، إذ ترك بيته في المخيم يسكنه ابنه راضي بعد أن عاد من دمشق يحمل شهادة الحقوق، وقد وجد الحاج حسـين فـي مزرعتـه الراحة بعد أن عاد يعمل في الزراعة " تحرر الحاج حسين من شقاء وذل العمل كحارس للبيـوت والعمارات قيد الإنشاء ، واستعاد همته ، وشمر عن ساعديه ، وعاد إلى مهنتـه التـي يتقنهـا ، وتحقق له الرضا فهو يرتبط بالأرض ، والأرض تكشف له أسرارها.." (65)

في المزرعة استعادت بدرية قوتها النفسية والجسدية واستعادت حيويتهـا ، فقـد اسـتطاع راضي وهو الأخ والصديق أن يخرج بدرية من عزلتها وكآبتها، ولكن أمل العودة أصبح بعيدا ،

فحين عرض عليها مجلة فلسطيننا نداء الحياة التي تصدر من بيروت " قلبت صفحات المجلة ، ثم ألقت بها جانبا .. وقالت : شبعنا من الكلام والشعارات .. لم يعد هناك أمل .امتلأ راضي بالغيظ، لكنه ضبط أعصابه ، وقال بصوت لم يخل من العصبية : إنها حركة فلسطينية جديدة ، تعتبر أن الوحدة بين أبناء الشعب الفلسطيني تقتضي نبذ الحزبية ، وتعتبر أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين." (66)

يعود الأمل من جديد في حياة بدرية حين تعلم أن نجيب مع مجموعة فدائية هربوا من سجن شطة، وأنه قد يصل في أية لحظة. لقد ظهر نجيب من جديد في حياة بدرية ، هذا المحارب الشجاع الذي لم يستسلم رغم ضعف الإمكانات. وقفت بدرية حائرة أمام هذا الظهور ، عاد نجيب ،وهو الماضي الذي يرتبط بسمخ وبزمن النكبة، ولكنه الرجل الشجاع بشهادة الجميع، الهارب من سجن المحتل، وهي "امرأة في منتصف العمر ، تطل عبر شرفة زمن في منتصف العمر. امرأة وزعت عمرها على نصفين.. على ليل ونهار، هجير وظل، لفح وبرد، وزمن رديء، وآخر لم تتبين ملامحه بعد. حياتها قيد الدرس .." (67)

لقد قررت بدرية أن تواجه نجيب وأن تتحدى الزمن وأن تعيد نجيب إلى الحياة التي فقدها حين ضاع الوطن، و أن تمنح له و لنفسها فرصة جديدة "لم يبق في العمر متسع، لم يبق أمام نجيب من خيارات سوى الضياع. لم يبق أمامها سوى مواجهته من أجل أن توقف زحف الصحراء إلى روحه... من أجل أن تبعث من جديد شعلة عاطفة مكنونة، غطاها رماد الغربة وأوجاع الروح . كان الصبح يتنفس ويتنفس قلبها، وروحها، و عقلها، ووجدانها... و كانت تتحفز، وتتجمع في أعماقها كل عناصر القوة." (68)

لم يكن نجيب يملك بعد هروبه من سجن شطة ووصوله إلى شرق النهر في مزرعة الحاج حسين في الأغوار إلا نظرة يلقيها على فلسطين، فهو يجسد حالة ضياع و ضبابية عاشها الفلسطيني بعد هجرته القسرية عام 48 و تشتته في الأراضي المجاورة، ينتظر في خيمة اللاجئ الأيام و الشهور ثم امتد الانتظار إلى سنوات، وما زال يقف على أعتاب وطن يمتد أمامه ولا يفصله عنه سوى مجرى نهر.

وفي المواجهة الأخيرة بين نجيب وبدريه في مزرعة الحاج حسين على أعتاب الوطن "كانت الغيوم القاتمة تتجمع، وتسد الأفق، وتعطي للنهار لوناً رمادياً." (69)

لقد كشف كل منهما حالته أمام الآخر ،وبدا الاثنان في حالة حيرة بين ماضٍ أصبح وراء الظهر وعصياً لا يمكن العودة إليه، فهو وراء السياج و قد أحيط بالأسلاك الشائكة، وحاضر ضبابي إذ يعيش الاثنان في حيرة وهما في خريف العمر،ولكن يحاول كل منهما أن يزرع الأمل في حياة

الآخر، ففي حوارهما الأخير في محاولة للتصالح، يقول نجيب " كنت أود أن أعود إليك قبل أن تجف عروقي ، وأتحول إلى غصن سقط عن شجرة فجف وتحول إلى مجرد عصا ملقاة على قارعة الطريق ... فتقول بدرية: وماذا أقول أنا وقد اشتعل الرأس شيباً.. فيرد: أنت أجمل النساء ... و تقول: وأنت وطني شجاع .. أنت الذي نذر عمره للقضية . لمع البرق، وقصف الرعد، وتردد صداه في الآفاق...فقال :إنه الخريف، كأن الطبيعة تذكرنا بخريف العمر . قالت له : إذا زرعت عصا جافة على بعد أمتار من هنا ، على الضفة الأخرى، فان أرضنا الطيبة تحتضنها، وسرعان ما تشرش، وتخضر، وتنمو عليها الأوراق ... أجابها: أنت لم تفقدي الأمل

- و هل فقدته أنت ؟
- لا ادري ... أمضيت العمر و أنا أحارب دون أن أحقق شيئا." (70)

يكشف الراوي في لقاء بدرية مع نجيب خارج حدود الوطن المفقود عن حالة الأمل التي ستستمر تحيا في حياة الفلسطيني على المستوى الفردي وعلى المستوى الجمعي رغم الحيرة والضبابية وغياب الرؤيا، فما دام هناك جيل يولد سيظل الأمل ينمو ويعشعش في حياة الفلسطيني مهما طال الزمن، لذلك يعود الأمل يضيء روح نجيب وهو يرى ماهر ابن الحاج حسين وماء السماء ابنة أبو حامد في المزرعة وشعر أن الأمل ممكن، ولكنه شعر بالفاجعة حين علم بحكاية ماء السماء هذه الطفلة الرضيعة التي وجدها أبو حامد على قارعة الطريق عام نكبة 48 حين أجبر على الهجرة من سمخ هو وعائلته، وفي الطريق وجدها ملقاة تصرخ من الجوع فحملها إلى زوجته أم حامد وهي التي لم تنجب الأطفال ، و حين فقدوا الأمل في العثور على أهلها اتخذوها ابنة لهم، "إنها ابنة النكبة ... ابنة المأساة .. ابنة هذا الظلم الذي يملأ الكون... جيل ماء السماء هو جيل الثورة القادمة." (71)

لقد لمع البرق من جديد وقصف الرعد، ولكن المطر انهمر فجأة ليغسل بدرية ونجيب من أدران الماضي استعداداً للحاضر والمستقبل، وقد حمل نجيب بارودته القديمة الصدئة لكن الأمل يكبر مع جيل الطفلين ماهر وماء السماء. وأبو حامد يبشر بصوت لا يخلو من شجن " هذا الذي ينزل علينا ليس مطر الغيوم.. إنه الغيث .. إنه ماء السماء." (72)

إن مرارة الحاضر ومأساة النكبة لن تمنع الفلسطيني من الأمل والتصميم على حق العودة، وإذا كان الظلم قد ملأ الكون حين ارتكب العالم جريمة كبرى بحق شعب أعزل وهجّرته من أرضه وحرمته من العودة ، فإن العدالة الإلهية لابد أن تتحقق في يوم ما ، فمهما طال زمن الغربة والمنفى ، فان العودة حتمية ، لأن العدالة ستنتصر بقدرة الله وقدرة الأجيال القادمة التي ستظل تعيش حلم العودة إلى الوطن المفقود.

-3-

تقاطع الروايتين - التشابه والاختلاف:

تتقاطع رواية "ماء السماء" مع رواية "نهر يستحم في البحيرة"، فقرية سمخ التي يذهب إليها الراوي العائد في رواية "نهر يستحم في البحيرة"، و يجدها لا تشبه القرية الحلم التي رسمها الآباء والأجداد نتيجةً لسياسة التهويد والتغيير ، يعود الراوي في محاولة سردية جديدة لمواجهة الواقع المعيش ليؤكد أن زمن السرد المتقطع بين الاسترجاع والاستباق والحلم والضبابية في رواية "نهر يستحم في البحيرة" لا ينجلي إلا بزمن متسلسل تعاقبي في رواية "ماء السماء".

لقد استرجع الراوي في رواية "نهر يستحم في البحيرة" زمن الماضي وذكرياته في زمن الحاضر المؤلم وهو العائد إلى وطنه ، ولكنها عودة في ظل الاحتلال ، فدفعه الشعور بالاغتراب إلى اجترار الماضي وشخصياته التي برزت وتحركت وعاشت معنا في رواية "ماء السماء" . لقد تقاطعت شخوص الروايتين ، فالعمة حفيظة يتذكرها الراوي في رواية " نهر يستحم في البحيرة " " وكانت عمتي حفيظة تقضي موسم الربيع في بيت شعر تنصبه فوق تلك المراعي الخضراء ، وتشرف بنفسها على جني المحاصيل وجمع السمن و الزبدة والعسل." (73) والعمة حفيظة ذاتها هي أولى الشخصيات التي يستهل بها الراوي رواية " ماء السماء " في زمن السرد بعد الخروج والهجرة من سمخ إلى شرق النهر.

لقد عاد الراوي في رواية "ماء السماء" إلى شخوص رواية "نهر يستحم في البحيرة" لمواجهة الواقع المهزوم الذي صنعته اتفاقات أوسلو وما بعدها ، وهو يؤكد حق العودة وملكية فلسطين التاريخية في حالة استرجاع تفصيلية لشخوص النكبة وحكاياتها ،إذ لم يكتف باسترجاع ومضات من الماضي في رواية "نهر يستحم في البحيرة"، وإنما أراد تأكيد المواجهة في خطاب سردي تبدأ الحكاية من أولها في حالة استحضار لتفاصيل الشخوص وحكاياتهم وعذاباتهم .

لم تكن العمة حفيظة وحدها الحاضرة في رواية " ماء السماء " وإنما برزت شخصية عبد الكريم الحمد وهو خال الراوي، ففي رواية "نهر يستحم في البحيرة" عاد إلى سمخ كما تخبره أمه خديجة ليموت كما تموت الغزلان " هل حقا أن جثة الخال عبد الكريم الحمد الذي عاد متسللا إلى سمخ بعد أن شعر بدنو أجله ليموت قريبا من شاطئ البحيرة كما تموت الغزلان ، هل حقا أن جثته مازالت موجودة ، وأنهم احتفظوا بها في ثلاجة طوال تلك السنوات الطويلة؟ كيف مات، وكيف وجدوا جثته، ولماذا لم يواروها التراب ، التراب الذي أحب أن يحتضنه ويحنو عليه ويموت فوقه ويبعث فيه حيا ." (74)

وإذا كانت العمة حفيظة أو خديجة أو عبد الكريم الحمد أو الفرس شخصيات استحضرها الراوي في رواية "نهر يستحم في البحيرة" أثناء استرجاع الماضي، فإنها في رواية "ماء السماء" هي الحاضرة الممتدة في زمن السرد ، وهي التي تصنع الأحداث وتشكلها في زمن النكبة وما بعدها بما تحمله من آلام وعذابات .

وإمعان النظر في تقاطع الروايتين في الأحداث والشخوص والأزمنة والأمكنة تجعل الباحث يقف عند زمن السرد في كلا الروايتين، ففي رواية "نهر يستحم في البحيرة" (1997) يكتب الراوي بضمير المتكلم حكايته بعد عودته إلى غزة في ظل أوسلو، وهو المناضل الذي عاش في المنافي وعاش حلم العودة إلى قريته سمخ التي كبرت في ذاكرته من حكايات الآباء والأجداد، وهو شقيق راضي بطل رواية ماء السماء " تكلمت مع شقيقي راضي الذي سألني إن كنت قد زرت سمخ ، فأخبرته أنني سأزورها قريبا فألح علي بأن أفعل ذلك سريعا وأن أبحث عن المكان الذي دفن فيه خالي عبد الكريم الحمد ، واستحلفني كي أحضر له حفنة من تراب القرية. كنت راغبا في البداية أن أزور سمخ .. كنت أرغب في أن أرى الحلم الذي عاش في سويداء قلبي.."(75)

لم تكن سمخ الماضي تشبه سمخ الحاضر بمحاولة التهويد ، ولم تكن عودة الراوي في رواية "نهر يستحم في البحيرة" عودة المنتصر إلى تراب وطن حلم به في المنفى ، فعاش حالة اغتراب في وطن مازال يقع تحت سيطرة الاحتلال وحواجزه الأمنية وقد اكتشف الراوي العائد في ظل اتفاقيات السلام ، أنه لا يوجد هناك سلام ، وأن القنبلة ستظل بين الفلسطيني والجندي الإسرائيلي طالما هناك احتلال ومصادرة حق العودة.

في ظل حاضر مهزوم قرر الراوي أن يكتب رواية ماء السماء (2008) وأن يعود بالحكاية من البداية ليذكر ذاته والآخرين حقيقة ما حدث ، وأن اتفاقيات أوسلو لم تعط للفلسطيني شيئا من حقوقه التي سلبت عام 1948 ، لذلك قرر الراوي أن يحكي بضمير الغائب في محاولة لمواجهة الواقع المهزوم بسرد الحكاية التي تثبت حق الفلسطيني في العودة إلى قريته ومدينته وأرضه التي أجبر على الرحيل منها وعاش في مخيمات اللجوء ينتظر العودة.

وإذا كان راضي بطل رواية ماء السماء هو شقيق الراوي لرواية نهر يستحم في البحيرة فان الراوي في الروايتين هو "ماهر"، ذلك الطفل الذي رآه نجيب في يوم ما في مزرعة أبيه الحاج حسين شرق النهر وحين نظر إليه وإلى ماء السماء قال: " كنت يائساً ، لكنني عندما وصلت إلى هذه المزرعة والتقيت بالطفلين ماهر وماء السماء شعرت بأن الأمل ممكن...." (76)

الخاتمة:

نستخلص مما سبق أن الفن السردي في العصر الحديث أحد المسارات الثقافيـــة لمواجهـــة الواقع المعيش في ظل متغيرات جذرية طالت الثقافة والفكر والمجتمع.

فالأدب لا يكتب من أجل الأدب وحده، وإنما يسعى الأديب إلى تشخيص الواقع وتجسيده بل ونقده ومواجهته بالكتابة التي تظل قوة حيوية في يده، فيصبح العمل الإبداعي تعويضا عن عجز يعيشه المبدع نتيجة عدم القدرة على تغيير الواقع المعيش بشكل مباشر.

يعد المكان بطلا في الروايتين، فكانت قرية سمخ التي احتلت عام نكبة 1948 هي الحاضر البارز في الروايتين، ولا يمكن الحديث عن حرية وعودة في ظل معاهدات أو في ظل بندقية دون العودة إلى الجذور، وإلى حلم الآباء والأجداد المتمثل في حق العودة إلى سمخ، رغم ما حدث لهذه القرية من تغيير نتيجة سياسة التهويد.

ومن يتأمل زمن السرد في رواية "نهر يستحم في البحيرة"، يتجلى لـــه الـــزمن المتقطـــع بـــين الاسترجاع والاستباق والحلم والضبابية، ولا ينجلي هذا التشظي الزمني إلا بزمن تعاقبي متسلسل في رواية "ماء السماء".

لقد عاش الراوي بطل رواية "نهر يستحم في البحيرة" أزمة نفسية حاول أن يتجاوزها في روايـــة "ماء السماء" حين غرف من الماضي الحقيقة المطلقة التي تثبت ملكية الفلسطيني للأرض وحقـــه بالعودة إليها. وفي محاولة منه لاستعادة توازنه النفسي في مواجهة الواقع كتـــب روايـــة "مـــاء السماء"، إذ تعيش الشخصيات حالة أمل في نهاية الرواية رغم مرارة الحاضر وآلامـــه ، وهـــو بحكاياته يتحدى الواقع المهزوم، ويشعل الأمل في ذاته من جديد رغم اتفاقيات السلام والمعاهدات والمعطيات الدولية لأن هناك عدالة إلهية ستنتصر على الظلم الذي ملأ الكون.

هوامش البحث

1- **عالم الرواية**، نورنوف أونيليه، وريال أونيليه، ترجمة: نهـــاد التكرلـــي، ط1، بغـــداد: دار المامون، 1991، 5.

2- **الاغتراب في الثقافة العربية**، حليم بركات، ط1، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 2006، 27 .

3- **الرواية العربية تبحر من جديد** ، إبراهيم السعافين، ط 1، دبي: دار العالم العربـــي للنشـــر والتوزيع، 2007، 2.

4- **فن الرواية**، ميلان كونديرا، ترجمة : بدر الدين عرودكي ، القـاهرة: المجلـس الأعلـى للثقافة، 2001، 8-9 .

5- **الكتابة ــ الحرية ومواجهة الانهيار**، محمد برادة
www.aslim.org/aslim/div/2005

6- **نهر يستحم في البحيرة**، يحيى يخلف،ط1، رام الله، فلسطين: دار الشروق للنشر والتوزيـع، 1997، 5.

7-المصدر السابق ، 109.

8- المصدر السابق ، 109.

9- المصدر السابق ، 5.

10- المصدر السابق ، 9.

11- المصدر السابق ، 10.

12- المصدر السابق ، 8 .

13- **الرواية والواقع** ،19.

14- **نقد الرواية**، نبيلة إبراهيم، القاهرة: دار غريب للطباعة، 36

15- **نهر يستحم في البحيرة**، 6.

16- المصدر السابق ، 26.

17- المصدر السابق ، 19.

18- - المصدر السابق ، 77 .

19- المصدر السابق ، 77 .

20- المصدر السابق ، 80.

21- المصدر السابق ، 22 .

22- المصدر السابق ، 99.

23- المصدر السابق ، 26.

24- المصدر السابق ، 122.

25-المصدر السابق ، 127.

26-المصدر السابق ، 128.

27- المصدر السابق ، 144.

28- المصدر السابق ، 13.

29-المصدر السابق ، 16.

30- المصدر السابق، 88.

31- - المصدر السابق، 116.

32- المصدر السابق، 140.

33- المصدر السابق، 22.

34- المصدر السابق، 117.

35- **الاغتراب في الثقافة العربية**، 28.

36- **نهر يستحم في البحيرة**، 67.

37- **نظرية الرواية والرواية العربية**، فيصل دراج، ط1، الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999، 25.

38- **نهر يستحم في البحيرة**،8.

39- المصدر السابق، 15.

40- المصدر السابق، 15.

41- المصدر السابق، 20.

42- المصدر السابق، 142.

43- المصدر السابق، 142.

44- **أركان الروايـــة**، إ.م فورستر، ترجمة: موسى عاصي، المراجعة اللغوية: د. سمر روحـــي الفيصل،ط1، طرابلس ، لبنان : جروس برس، 1994، 240.

45- **الرواية والواقع**، محمد كامل الخطيب، ط1، بيروت: دار الحداثة للنشر،1981، 15-16.

46- دراسات في الفكر والأدب، حسين مروة، تجميع وتقديم: محمد دكروب ط،1 بيروت: دار الآداب، 1993، 62.

47- الرواية الجديدة في مصر، محمد بدوي، ط1، بيـــروت: المؤسســـة الجامعيـــة للدراســـات والنشر،1993، 239.

48- **المثقف العربي والسلطة /بحث في رواية التجربة الناصرية**، سماح إدريس، ط1، بيروت: دار الآداب، 1992، 15.

49- **دراسات في الفكر والأدب**، 61.

50- **الوجود والزمان والسرد**، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغـــانمي ، ط1، بيـــروت: المركـــز الثقافي العربي، 1999، 29 .

51- **ماء السماء**، يحيى يخلف، ط1، عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2008، ص7

52- المصدر السابق، 7.

53- المصدر السابق، 23.

54- المصدر السابق، 26.

55- المصدر السابق، 27.

56- المصدر السابق، 7.

57- المصدر السابق، 77.

58- المصدر السابق، 228-229.

59- المصدر السابق، 7-8

60- المصدر السابق، 147.

61- المصدر السابق، 18.

62- المصدر السابق، 236.

63- المصدر السابق،251.

64- المصدر السابق،237.

65- المصدر السابق،243.

66- المصدر السابق،272.

67- المصدر السابق،277.

68- المصدر السابق،278.

69- المصدر السابق،281.

70- المصدر السابق،282.

71- المصدر السابق،283.

72- المصدر السابق،285.

73- نهر يستحم في البحيرة،87.

74- المصدر السابق،104.

75- المصدر السابق،19.

76- ماء السماء،283.